

رحلة ابن بطوطه

تلخيص وتعليق

الأستاذ محمد اسماعيل ابراهيم

المدرس بمدرسة الظاهر الأميرية

ابن بطوطه مولده ونسبه :

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم الملقب بشمس الدين ابن بطوطه الرحالة الشهير، الذي طاف الأرض معتبرا وطوى الأمصار مختبرا ولد بطنجة الواقعة على مياه بوعاز جبل طارق ببلاد المغرب سنة ٧٠٣ هجرية الموافقة سنة ١٣٠٤ ميلادية

ويعتبر ابن بطوطه أحد من أنجبهم بلاد المغرب من علماء وأدباء وقواد وهو معاصر لابن خلدون صاحب القدم الراسخة في علوم الاجتماع . وترجع شهرة ابن بطوطه إلى رحلته الطويلة التي جاس خلالها الاميراطورية العربية وسار الى أبعد حدودها شرقا في بلاد الصين . وقد دون أخبار هذه الرحلة في كتابه المسمى « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » أهمية كتاب تحفة النظار :

لقد كان لكتاب ابن بطوطه الأثر البعيد والفضل الأكبر، في كشف الستار عن أخبار أقوام عاشوا بالدنيا القديمة ، ولم تيسر لهم أسباب التقارب والتعارف والكتاب مرجع تاريخي لنواح اجتماعيه في مختلف الأقطار التي زارها ومرآة جليلة لهذا العصر، كما أنه أفاد من الناحية الجغرافية كثيرا . وما يدل على أهمية الكتاب ونفاسته ، أنه ترجم إلى اللغات الأجنبية لأن واضعه ثقة يحدّثك بأمانة عما عاينه من حياة الناس وآدابهم وعلومهم وصناعاتهم والعادات المتفشية فيهم ينشرك الكتاب هذه المعلومات الكثيرة الطلية في أسلوب روائى ونكات

ظريفة تدل على لباقة ابن بطوطة وخفة روحه وهو في هذه الصور التاريخية الرائعة التي رسمها عن وصف المان وأهلها ، يعطينا أوضح فكرة عن هذه الأيام الحالية التي كان ظلام القرون الوسطى سادلا أستاره الكثيفة عليها لصعوبة المواصلات وندرة الرحالين ، الذين يزجون بأنفسهم في مجاهل الأرض المحفوفة بالمهاالك . وإن كانت هناك طائفة تقضى عليها أعمالها أن تنتقل في أنحاء هذه الأقطار التي تكلم عنها ابن بطوطة ، فهم التجار الذين قاموا بقوافلهم يقطعون الفيافي ويهبطون في الأمصار . ولكنهم كانوا لا يهتمون بالتعرف إلى الحياة الفكرية أو العلمية أو حالة الطبقات التي لا تحتك بهم في المعاملة . وذلك لأن ميلهم وفرقتهم لا يسمحان لهم بذلك . هذا فضلا عن أنهم لم يفكروا في كتابه شيء يبقى على مر الأيام . بل كانوا يذيعون معلوماتهم بين عشيرتهم شفويا ، وهؤلاء يبالغون في تصويرها حتى يخرجونها عن حقيقتها

لذا فإن كتاب تحفة النظار في جملة ، يوضح للباحثين باجلى بيان ، الثقافة العامة الشائعة يومئذ . تلك الثقافة التي كان سداها ولحمتها الدين وآدابه وأحكامه ورجاله ففي مواقفك الكثيرة مع ابن بطوطة في رحلته ، تراه لا يتحدث إليك بأفاضة وإسهاب إلا عن العلماء والأولياء ومناقبهم ومقاماتهم العالية وما جرى له معهم من كرامات ، وما ناله على أيديهم من بركات . ولا عجب فإن الدين في هذا العصر كان ظاهر السلطان ، وله من الحكم والحكمة والخاصة أعوان أى أعوان

نعم كان الدين ملء الأسماع والأبصار والقلوب ، فلا غرو أن يكون ابن بطوطة على دين ملوكه . فهو يملأ سيرة رحلته بذكر العباد والزهاد ، الذين حظى بشرف المثول بين أيديهم أو في أضرحتهم في القرى والأمصار ، وليس أدل على أن جوانحه كانت منطوية على شعلة متقدة من الصلاح ، من أنه وهو في شرح الصبا وربعان الشباب يترك أهله وعشيرته نازحا بنفسه عن وطنه وحيدا يقتحم الأخطار في زمن لم تكن فيه غير الدواب والسير على الأقدام وسيلة للانتقال في تلك المسافوز الواسعة المهلكة ، التي اجتازها لأداه فريضة الحج ، واستمع إليه إذ يقول

« كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعائة، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة أقبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وركب ككون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة آمن في تلك الحيازم »

فخيل هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، كيف يخاطر بحياته الغالية وتملكه عاطفة الدين الشريفة لأداء فريضة الحج في رحلة بعيدة الشقة، لم يتزود لها إلا بأيمانه الصحيح، ثم يقضى خمسة وعشرين عاما يحول في القفار والأمصار وهو أينما ذهب يقابل بالترحاب ويشع بالآلال والأعجاب مما يدل على سمو شخصيته وعلو همته. وإلى القراء ملخص وتعليق على رحلات هذا السائح الظريف، وما شاهد وعان من عجائب الأسفار وغرائب الأمصار من طنجه إلى الاسكندرية

خرج ابن بطوطة من طنجة في أيام الأمير سعيد بن أمير المؤمنين أبي يوسف ابن عبد الحق. وترى في سياق الرحلة كثيرا من أسماء هؤلاء الحكام من عمال الموحدين. وقد لصق ابن بطوطة بهم الألقاب الضخمة الفخمة من ناصر الدين إلى حامى حمى الإسلام وإلى غير ذلك مما لا حصر له، مما سنضرب عنه صفحا ولكننا أمام هذه الألقاب الدينية الكبيرة نشير هنا إلى ما كان لسلطة الحكام والولاة المحلية من أثر ظاهر في بيئتهم، لأن نظام الحكومة في هذه البلاد الإسلامية كان على نمط الحكم العربى الذى تتمثل فيه السلطان الدينية والزمنية إذ لم تكن هناك حكومات بمعناها الحاضر ملكية وجمهورية واستبدادية وما يتبع ذلك من نظم وتقاسيم إدارية الخ

... ووصل إلى تلمسان فالجزائر حيث يقص عليك أول ظلم رآه من عمال الموحدين وهو اغتصابه مالا، كان أوصى به أحد التجار الذين ماتوا معه في الطريق لرجل من القافلة بوصله لأهله، ولعل حادثة ابن بطوطة وقتند وطهارة

قلبه هي التي جعلته يستعظم هذا الجرم الذي كان ولا يزال من شيم النفوس في كل مكان وزمان

وقد أصيب ابن بطوطة في الطريق بحمى ، فأشار عليه رفاقه أن يمكث في بلدة (بجاية) حتى يبرأ ، ولكنه أبى مستعذبا أن يموت في سبيل طاعة الله لأداء فريضة الحج ، وظل مسافرا حتى وصل الى قسنطينة فتلقاهم حاكم المدينة بالبشر وطلب إليه أن يخلع ملابسه لتغسل لأنها كانت قد اتسخت وكان بعضها خلقا فردت إليه ملابسه نظيفة ومعها أخرى جديدة ، وصر له في أحد أطرافها دينار من الذهب ، فنقبل هذا الفضل مغتبطا وهو يعتقد أن هذا من نعم الله عليه ، وسار إلى مدينة بونه وأقام بها أياما ، وبعد ذلك انقطع أكثر من كان معه خوفا من الطريق ، إلا أنه تجرد للسفر مع فئة قليلة وأجهد نفسه في المسير حتى أصابته حمى شديدة الوطأه هزل بسببها إلى درجة أنه كان يشد نفسه بعمامته فوق السرج لثلايقع ، حتى وصل إلى تونس ، وهناك أقبل بعض الناس على من كانوا معه بالسؤال والسلام والأيناس ، وهو لا يسلم عليه أحد لأنهم لا يعرفونه ، فذرفت عيناه وحشة وألما ، وفي هذا دليل على إنسانيته ورقة قلبه

ولم يصف لنا ابن بطوطة هذه المدينة العظيمة إلا بوجود علماء أجلاء يجتمع بعضهم بالأهالي عقب صلاة الجمعة بجامع الزيتونة العظيم للوعظ والأرشاد والافتاء ، ولما كان العيد قد أظله هناك فهو يحدثك عن صورة تاريخية بديعة تلك هي احتفاء الحكام بالأعياد وخروجهم راكبين مطاياهم وحوطهم الأهل وخواص المملكة ، مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب ، فأين هذا المظهر الآن ؟ لقد قضت سنة التطور أن تندثر هذه الصور البديعة الرائعة وتحل محلها تقاليد أخرى هي الاحتفاء بالأعياد على صورة أخرى من اللهو والمرح أو نسيانها لأن أعباء الحياة وتكاليفها جعلت كثيرا من الناس لا يقيمون للأعياد وزنا خرج بعد ذلك من تونس في زكب ذاهب إلى الحجاز وكان قد تعين قاضيا ، ويدل هذا على ثقافة ابن بطوطة ، وسار الركب حتى بلدة سوسة ثم صفاقس

حيث عقد فيها على بنت أحد التونسيين ، ولم يشر إلى بلدة صفاقس هذه بكلمة من عنده ، بل تركنايين قولين متناقضين لشاعرين أحدهما يمدح صفاقس قائلاً :

سقى لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
محى القصير إلى الخليج فقصرها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين تزوره أهلاً وسهلاً
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويمسلاً
صب يريد زيارة فأذا رأى الرقباء ولى

بيننا الآخر يذم قائلاً :

صفاقس لاصفا عيش لساكنها ولاسقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها عادى بها العاديين : الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا
وقول الشاعرين يعبر عن نفسية كل إنسان وعمما يلاقه من خير أو شر
فى أى مكان ينزح اليه وما يصادفه فيه من نجاح أو فشل وتوفيق أو سوء حظ
ولهذا قيل :

وكل مكان ينبت العزطيب

ثم وصل إلى قابس ومنها إلى طرابلس حيث وقعت مشاجرة بينه وبين
صهره ، ففارق ابنته من أجله . وهذا من ظلم الدهر أن تؤخذ الزوجة بجريرة الأقارب
ومع مضي القرون الكثيرة لازلنا نرى ونسمع هذه المشاكل التى لم يفد
أى علاج فى تلطيف حرماتها مع كثرة ما كتب وما اقترح لتهديب الأخلاق
وثقيف العقول

ثم تزوج بعد ذلك بنتا لبعض طلبة العلم . هكذا قرأت فلا تدهش لأن
عهدنا بطلاب الأزهر ليس يبعد ، حيث كان بعضهم يناهز الأربعين أو الخمسين
لاصفا بالأزهر فى حياة خشنة عمرة ، ولا يخرج الواحد منه ليبنى ثمار ما حصل
من علم إلا عند ما يقارب الشيخوخة . ثم وصل بعد ذلك إلى الإسكندرية (يتبع)